عبد الرحمن الجبرتي : المؤرخ المصرى

دراسة فى سيسولوجيا المعرفة

للدكتور عاطف أحمد فؤاد

مدرس علم الاجتماع — كلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر

مقدمة :

لعله من المتفق عليه أن المتتبع لتاريخ المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يستطيع أن يستقرأ عدة حقائق لعل من أهمها أن هذه الحقبة قد شهدت عدة أحداث ، من أبرزها ذلك الوهن الذى أصاب الحكم العثمانى وضعف سيطرته على المجتمع المصرى ، ثم محاولة المماليك الاستقلال بمصر وهو الأمر الذى أصابوا فيه نجاحاً لا ينكر ، إلا أن هذا النجاح لم يكتب له الاستمرار نظراً لطبيعة العلاقة القائمة بين جماعات المماليك ، تلك العلاقة التى اتسمت بالصراع ومحاولة استئثار كل فريق بالسلطة .

ولم يكن صراع جماعات المماليك هذا إلا نذيراً بتدخل القوى الأجنبية ولعل فى الحملتين الفرنسية والإنجليزية خير شاهد على ما تذهب إليه .

وتعد تلك الحقبة التى تجلى فيها حكم محمد على من أخصب الحقب التى زخرت بالحوادث وشهدت عدة وقائع كان لها تأثير كبير فى تسيير مجريات الأمور فى المجتمع المصرى فيما بعد .

ولم يكن الإنسان المصرى وسط هذه الحوادث إلا ضحية تلك الصراعات ، فهو حائر بين جماعات كثيرة تحاول الاستئثار بالسلطة وشرازم لم يكن همها إلا السيطرة على الحكم ، وهو بين هذه وتلك لا يملك إلا السخرية من الحاكم ، والتهكم عليه ، وهى سخرية الخائف وتهكم المظلوم .

وبين الخوف والظلم يظهر مؤرخنا المصرى عبد الرحمن الجبرتى ذلك المؤرخ الذى تعود قيمته إلى كونه أول من عمل على إحياء حركة التأليف التاريخ فى مصر بعد ابن إياس[1] مسجلا وقائع تلك الحقب ، معلناً عن موقف واضح من السلطة ، متخذاً من أحداث العصر مواقف وإن اتسقت فى عمومها ، إلا أنها قد يبدو عليها التناقض أحياناً ، ويتجلى هذا التناقض فى تلك المواقف التى اتخذها من الإنسان المصرى ، فهو متعاطف معه أشد ما يكون التعاطف ، ساخر منه أشد ما تكون السخرية .

ولعل فى تأرجح الجبرتى فى موقفة من الإنسان المصرى بين التعاطف والسخرية ما يبرر لنا الكشف عن موقف الجبرتى من بعض قضايا عصره والتى سوف تكشف بدورها عن رؤاه الاجتماعية والسياسية من القضيتين الآتيتين :

أولا : الجبرتى والسلطة الحاكمة .

ثانياً : الجبرتى والثورة .

واعتماداً على ما تقدمه لنا مناهج البحث فى علم الاجتماع المعرفة من مناهج وطرائق لعل فى مقدمتها طريقة العزو أو رد الشىء إلى أصوله Tmputationion ثم فكرة العوامل الاجتماعية الوجودية ، وأخيراً الطريقة الخاصة باقتفاء الأثر من الزاوية السسيوتاريخية ، فإنه ينبغى أولا أن نشير إلى طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى فى الفترة التى عايشها عبد الرحمن الجبرتى ، ثم إلى تلك الظروف الخاصة التى صاحبت نشأته من الصغر وحتى مرحلة النمو

ثم تلك المرحلة التى بدأ يمارس فيها حياته العامة حتى يكون حكمنا على تصوراته ورؤاه حكماً موضوعياً فى إطار ظروفه الخاصة وظروف مجتمعه الذى نشأ فى أحضانه ، وذلك تدعيما لمنهج العزو أو طريقة رد الشيء إلى أصوله ، ثم اعتماداً على منهجى الحتمية الاجتماعية الوجودية واقتفاء الأثر من الزاوية السسيوتاريخية .

فالملاحظ المدقق لفترة ما قبل الحملة الفرنسية أو للعصر التركى المملوكى يرى أن المجتمع المصرى منذ غزاه العثمانيون يسير من سيىء إلى أسوأ ، فالأرض للسلطان يوزعها كما شاء على حظوته ومريديه ، ومجتمع بوجه عام يتميز بالطبقية الصارخة فهو يتكون من قوى فوقية وأخرى تحتية « .... أو بعبارة أخرى أقلية أرستقراطية وأكثرية من العاملين فى الأرض فى القرى أو من المشتغلين بالحرف الصناعية فى المدن . وكانت الأقلية أو القوى الفوقية تتألف من الأتراك ، والعثمانيين وبكوات المماليك ، فى حين كانت تتألف القوى التحتية من الفلاحين والصناع من أبناء العرب من المغلوبين على أمرهم والمحرومين من كل شيء والذين وقعت عليهم مغارم الحكم ، فى الوقت الذى استحوذت عليه الأقلية صاحبة الامتيازات على مغانمه »[٢] .

ولم يكن العثمانيون والمماليك إلا « . . . سادة فاتحين ، لهم حق الاستغلال ولهم حق الانتفاع وعلى المحكومين من أهل البلاد أن يشقوا ويكدوا ليقدموا ثمرة كدهم صاغرين لأولئك السادة المستبدين ، ثم أن العثمانيين حكموا مصر بوصفهم أرستقراطية حاكمة لا يعنيهم أن يتدخلوا فى شئون البلاد إلا بالقدر الذى يحقق لهم أكبر قسط من استغلال مواردها ، ولذلك ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالمصريين ، إذا نظروا إليهم فإنما ينظروا شذراً ، وإذا خاطبوهم أو عاملوهم ، فإنما يخاطبونهم لجمع المال ويعاملونهم لامتصاص أقصى ما يمكن امتصاصه من ثرواتهم وخيرات بلادهم »[٣] .

ولعل العلاقة الوحيدة التى كانت قائمة بين الحاكم والمحكوم أو بين الشعب المصرى آنذاك وحكامه علاقة تنهض فى واقع الأمر على جمع الضرائب من جهة، وعلى الحذر وعدم الثقة والاحتقار من جهة أخرى، الأمر الذى انعكس على الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى آنذاك.

ومما يؤكد هذا ما يشير إليه عبد الرحمن الجبرتى حيث يروى لنا أنه سنة اثنتين ومائتين وألف، وفى الخامس منه «... طلب اسماعيل بك دراهم قرضه مبلغاً كبيراً فوزعوا منها جانباً على تجار البن والبهار وجانباً على الذين يقرضون البن بالمرابحة للمضطرين، وجانباً على نصارى القبط والأروام والشوام وعلى طوائف المغاربة بطولون والغورية وعلى المتسببين فى الغلال بالسواحل والرقع، وكذلك بياعو القطن والبطانة والقماش والمنجدون واليهود وغيرهم، فانزعج الناس وأغلقوا وكائل البن والغورية ودكاكين الميدانى»[٤].

نلاحظ من ذلك أن الضرائب كانت تفرض جزافاً وفى أى وقت ولأى سبب، وأن هناك طوائف معينة كانت تتحمل عبء هذه الضرائب وحدها دون غيرها وهى الطبقات الفقيرة فى المجتمع كالفلاحين وصغار التجار والحرفيين وغيرهم.

وإذا كانت الحملة الفرنسية تعد أول إطلالة حقيقية على الثقافة الغربية باعتبارها أول احتكاك مباشر بين المجتمع المصرى وبين الحضارة الأوروبية الغربية الحديثة، إلا أنها لم تحدث تغييرات جذرية للبناء الاجتماعى الاقتصادى للمجتمع المصرى رغم تلك المشروعات التى اضطلع بها الفرنسيون أيام نابليون ومن خلفه فى مصر كمشروع كفاريللى للإصلاح الزراعى ومشروع مينو لإصلاح نظام ملكية الأرض.

والواقع أن معظم هذه المشروعات لم تنفذ بل إن حال الفلاحين فى القرى والحرفيين وصغار التجار فى المدن ازدادت سوءاً نظراً للضرائب الباهظة التى

كان يفرضها الفرنسيون بشكل لافت دون تمييز ، ودون الأخذ فى الاعتبار الظروف الاقتصادية التى كان يحياها فقراء الشعب المصرى .

أما عن عصر محمد على فهو من العصور التى كانت ولا زالت تثير كثيراً من الجدل واختلاف وجهات النظر ، ولا سيما عند المقابلة بين المنجزات المادية التى حققها هذا العصر ، وبين انعكاس هذه المنجزات على طبقات الشعب وفئاته وخاصة فى إحساس هذا الشعب بالعدالة والحرية .

لقد ألغى محمد على نظام الالتزام وهو من أسوأ الأنظمة الزراعية التى عرفتها مصر ، ودمر بذلك هذه الطبقة القديمة التى كانت تسيطر على الأراضى وتستغلها فى ظل هذا النظام ، « . . . . ومهد الطريق لظهور طبقة جديدة من الملاك . ولكى يوفر التوازن لحكمه أخذ يجرب أشكالا عديدة من حيازة الأرض الغرض منها جميعاً زيادة دخله .

وقد نشأت الضياع الخاصة الكبيرة ونمت ، وهى إحدى السمات المميزة لمصر الحديثة فى عصره »[٥] .

وقد يحمد البعض لمحمد على أنه وزع بعض الأراضى على الفلاحين ، إلا أن هذا التوزيع لم يكن يعنى فى واقع الأمر تمليكاً ، حيث لم يتمتع مالكو الأرض إلا بحق الانتفاع بها فلم يكن لهم حق بيعها أو التصرف فيها .

والحقيقة أن ما وزعه محمد على من أراض على الفلاحين وهب فى مقابله آلاف الأفدنة إلى أقاربه وأتباعه على نحو ما يذهب شارل عيسوى[٦] .

ولقد خلق محمد على بذلك طبقة مالكة من عائلته ومحاسيبه ومعاونيه « . . . . الذين يهللون لكل ما يقوم به الباشا ، وفى أحيان كثيرة كانوا مغامرين يلتمسون تحقيق مصالحهم الخاصة وزيادة مكاسبهم الشخصية بمداهنته وتغذية أوهام القوة التى تجول بخاطره ويشجعونه على القيام بأعمال جديدة لا تحتملها طاقته ولا تعود على البلاد بأى نفع »[٧] .

معنى ذلك أنه قد تربع على قمة البناء الطبقى للمجتمع المصرى محمد على وأسرته وكبار معاونيه من الأتراك وغيرهم ، فضلا عن كبار الأعيان والضباط وفى قاع هذا البناء نجد الفلاحين والحرفيين وصغار التجار الذين عانوا الأمرين، ولنا فى حال الفلاحين خير شاهد على ما نذهب إليه ، إذ أنه على الرغم من تخلص الفلاح من المماليك والملتزمين ، إلا أنه لم يحر أى تحسين فى حياته فهو « . . . . مرتبط بقطعة أرضه كما كان فى عهد المماليك ، وكان يوجب عليه أن يعمل ٦٠ يوما من كل عام سخرة فى أراضى محمد على وأتباعه . أما ما كان يدفعه من ضرائب للملتزمين ، فصار يقوم بجابيتها ، جباة الدولة ، ولكن بنسب أعلى ، وكان قد أعفى الفلاح من الخدمة العسكرية ، فى عهد المماليك أما الآن فقد أصبح الفلاح معرضا للتجنيد العسكرى ومهدداً بالخدمة لسنوات طويله فى الجيش الانقطاعى من التدريب تحت السياط وأخيراً لم يكن فى سعته التصرف بحرية بمنتجاته ، إذ كان ملزماً بتسليم القسم الأكبر منها إلى محتكرى الحكومة ، وذلك بأسعار منخفضة »[٨] .

ويشير الجبرتى مؤكداً تلك الحال التى آل إليها فلاحو مصر أيام حكم محمد على إلى أنه فى أكتوبر ١٨٠٧ م(*) قرر الباشا ومعاونوه « . . . فردة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى . وان لم يجد المعينون للطلب شيئاً من الدراهم عند الفلاحين أخذوا ، مواشيهم وأبقارهم ليأتى أربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوها ، ويتركونها بالجوع والعطش . فعند يبيعونها على الجزارين ويرمونها عليهم قهراً بأقصى القيمة ، ويلزمهم بإحضار الثمن . . . فان تراخوا وعجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب »[٩] .

ولقد كانت الطبقية والتحيز وعـــدم المساواة سمة تميز عصر محمد على ، ويضرب لنا مؤرخنا الجبرتى مثلا فى الطبقية والمحاباة حيث يشير إلى عملية فرض ضرائب المكوس (الجمرك) فيقول « ومنها أن ديوان المكس ببولاق

— الذى يعبرون عنه بالكمرك — لم يزل يتزايد فيه المتزايدون حتى أوصلوه إلى ألف وخمسمائة كيس فى السنة . وكان فى زمن المصريين يؤدى من يلتزمه ثلاثين كيسا ، مع محاباة الكثير من الناس ، والعفو على كثير من البضائع لمن ينسب إلى الأمراء وأصحاب الوجاهة من أهل العلم وغيرهم .

فلا يتعرضون له ، ولو تحامى فى بعض أتباعهم ولو بالكذب ، ويعاملون غيرهم بالرفق ، مع التجاوز الكثير ، ولا يفتشون المتاع ولا رباط الشىء المحزوم . . . بل على الصندوق أو المحزوم قد يسير معلوم »[١٠] .

وتحتم علينا الرؤية الموضوعية والدراسة الجادة لفكر عبد الرحمن الجبرتى ورؤاه ، الاجتماعية والسياسية ألا نغفل تلك الظروف الخاصة التى صاحبت نشأة الرجل ، ذلك المؤرخ المصرى الذى استطاع أن يقدم لنا صورة كاملة للمجتمع المصرى العثمانى بما فيه حكم المماليك والحكم الفرنسى فضلا عن حكم محمد على . والحق أن الجبرتى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الإسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة[١١] .

ولد الجبرتى لأب ثرى خلف له ميراثاً ضخماً ماديا وأدبياً . حيث كان والده من أغنياء عصره فضلا عن كونه عالماً من علماء الأزهر ذوى الشهرة والصيت ، حيث كان منزله محراباً للباحثين والعلماء . ولقد ورث الشيخ عبد الرحمن هذا التراث برمته الأمر الذى أضفى عليه مكانة بارزة فى المجتمع القاهرى ولا سيما من حيث صلاته الواسعة بأصحاب السلطان من الأمراء والأجناد والتجار . وفى هذه البيئة العلمية — المترفه نوعا ما نشأ عبد الرحمن الجبرتى ، وتقدم الصفوف الأولى من علماء زمانه[١٢] .

ولا أشك أننا فى ضوء طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى

آنذاك ، ومن خلال ما تكشف لنا عنه السيرة الذاتية لعبد الرحمن الجبرتى من ظروف خاصة صاحبت نشأة الرجل وانعكست آثارها على حياته فيما بعد لا سيما فى تلك المكانة الاجتماعية والعلمية التى أكسبته وضعاً خاصاً بين أقرانه من أعضاء الهيئة العلمية ، نستطيع أن نكشف عن طبيعة الفكرين الاجتماعى والسياسى للجبرتى بشكل موضوعى وذلك من خلال قضيتى الدراسة المشار إليهما آنفاً .

(أولا) الجبرتى والسلطة الحاكمة

يعد الجبرتى من ذلك الطراز من المؤرخين الذين يعتبرون ظاهرة متميزة فى وقت كانت فيه كتابة التاريخ كما يذهب الجبرتى نفسه من « شغل البطالين وأساطير الأولين » .

ولقد خلف لنا الجبرتى تراثاً عظيما سجل فيه أحداث حقبة من أخصب حقب المجتمع المصرى وأغزرها من حيث الأحداث وتعقد الحوادث .

ولا شك أنه رغم تميز الجبرتى وتفرده واتسامه بالموضوعية ، إلا أن نظرته للأمور أحياناً ما كانت تتلون بميوله الخاصة ، وما كانت تلك الميول إلا نتاجاً للظروف الموضوعية لمؤرخنا الكبير .

ولعل من أهم تلك القضايا التى اختلطت فيها لدى الجبرتى الرؤية الذاتية بالرؤية ، الموضوعية هى تلك القضية الخاصة بموقفه من السلطة الحاكمة وتصوره عن طبيعة الحاكم العادل .

وموقف الجبرتى من السلطة الحاكمة فى عصره ، موقف متأرجح بين تأييد ورفض ، ولعل هذا التأرجح يرجع إلى طبيعة السلطة فى كل مرحلة من المراحل التى عاشها مؤرخنا الشيخ . إلا أن هذا الموقف - أى موقفة من

السلطة - تبدو عليه بعض السمات العامة لعل من أهمها رفضه للظلم وحبه وولعه الشديد بالعدالة وهو الأمر الذى سيتضح جلياً عندما نكشف عن موقف الجبرتى من محمد على .

ولعل ولعه وحبه الشديد للعدالة هو الذى جعله يتخذ من المماليك موقفاً متشدداً ينم عن احتقار واستهجان لتصرفاتهم فى الحكم والإدارة ولا سيما فيما كانوا يمارسونه من ظلم وتعنت على أفراد الشعب ، ويسرد لنا الجبرتى تلك القصة التى تبين مدى ظلم المماليك وبجملها « أن الشيخ الشرقاوى كانت له حصة فى قرية بشرقية ببلبيس حضر إليها أهلها وشكوا من محمد بك الألفى وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا إليهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعد ما خاطب مراد بك وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك ... فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادبك ، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها . . . . »[١٣] .

نستشف من ذلك النص مدى الظلم اللاحق بفئات الشعب من قبل المماليك وعدم خضوع الشعب أو خضوعه لهذا الظلم ، بل قاومه ولم يهدأ إلا بعد توقيع أول ميثاق يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم وهى « . . . الأمر الذى دفع بعض المهتمين بالتاريخ أن يشبهوا هذه الحجة التى فرض عليها الباشا ووقع عليها ابراهيم ومراد بالماجنا كارتا »[١٤] .

ولعل موقف الجبرتى من هذه الحادثة هو موقف المعارض للسلطة المملوكية والمؤيد للشعب ، وهو الأمر الذى تأكد أيضاً من تعاطفه الشديد

مع (ثورة) « . . . أهالى الحسينية ضد ظلم أحد صناجق مراد بك فى أواخر عام ١٧٨٥ »[١٥] .

فالظلم عنده أمر مستهجن لأن (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنه ، قيام ليلها ، وصيام نهارها)[١٦] . فإقامة الشريعة والرفق بالرعية هما من أهم الصفات التى يرى الجبرتى ضرورة توفرها لدى الحاكم العادل[١٧] .

لذلك لا نجد غرابة فى حملته الشديدة على المماليك ، ورغم اتهام البعض له بأنه كان يحارب المماليك ولكن من بين صفوفهم ، حيث كان مملوكى الروح[١٨] ، ولكن موقفه بوجه عام من المماليك هو موقف المعارض المستهجن لتصرفاتهم وسوء إدارتهم وظلم حكمهم .

إلا أن موقف الجبرتى من الحملة الفرنسية ومن السلطة الفرنسية الحاكمة موقف يتسم بالإعجاب الشديد والانبهار بمنجزاتهم وحبهم الشديد للعلم فضلا عن إعجابه الشديد بنظم الحكم التى أرسوها وفى أسلوب محاكماتهم الذى اتسم بالعدل لا سيما فى محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر والتى يصفها الجبرتى وهو مأخوذ بنظامها وأسلوب سير الإجراءات فيها .

إلا أن الجبرتى رغم إعجابه هذا رأى فى غزوهم لمصر اعتداء صارخاً وتمنى انتهاء حكمهم ولكنه — كما يذهب أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — « . . . لم يشارك فى مقاومتهم أو الثورة عليهم ، بل لا نرى له — وهو من بين المتصدرين من علماء تلك الأيام موقفاً يتسم بالمعارضة للفرنسيين كما نرى من الشرقاوى أو السادات مثلا . ولكى لا نذهب إلى حد اتهام الجبرتى بالتعاون مع الفرنسيين »[١٩] .

ولكن فى حقيقة الأمر إذا كان الشيخ الجبرتى لم يشارك مشاركة إيجابية فى مقاومة الفرنسيين أو الثورة عليهم ، إلا أنه ظل دائماً يندد ببعض مواقفهم

التى اتسمت بالظلم وخاصة فيما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة وفى أوقات متقاربة بالقوة والقهر ، وكان نصيب الحرفيين وصغار التجار والفلاحين من هذه الضرائب كبيراً ، بل أن هذه الطبقات بالذات كانت المنهل الذى كان ينهل منه الفرنسيون . ويروى لنا الجبرتى مؤكداً ما نذهب إليه أنه « .... فى يوم السبت سادس عشر ، أرسلوا تنابية إلى أرباب الحرف والصنائع يطلب دراهم وزعت عليهم بمجموعها خمسمائة كيس ، فضج الناس وتكدروا ، ومع ما هم فيه من وقف الحال وغلاء الأسعار فى كل شىء ، وأصبحوا على ذلك يوم الأحد ، فلم يفتحوا الحوانيت ، وانتظروا ما يفعل بهم ، وحضر منهم طائفة إلى الجامع الأزهر ، ومر الأغا والوالى ينادون بالأمان ، وفتح الدكاكين فلم يفتح منهم إلا القليل .... وفيه وقعت معركة بسوق الصاغة بين بعض العسكر الذين ينحشرون فى أيام الأسواق فى الدلالين والباعة ويعطلون عليهم دلالاتهم وصناعتهم ومعايشهم ، وضربوا على بعضهم بالرصاص ، ففزع الناس وحصلت كوشة وظن من لا يعلم الحقيقة من العسكر أنها قومة ، فهربوا ، يميناً وشمالا وطلبوا النجاة والتوارى »[٢٠] .

ويدلل الجبرتى فى الرواية الآتية على بعض مواقف الفرنسيين التى اتسمت بالظلم والتعنت فيقول « فيه اشتد أمر المطالبة بالمال ، وعين لذلك رجل نصرانى قبطى سمى شكر الله ، فنزل بالناس ما لا يوصف ، فكان يدخل إلى دار أى شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القرم ، فيأمر بهدم الدار إن لم يدفعوا المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصاً ما فعله ببولاق ، فإنه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والمشاق ، ينوع عليهم العذاب ، ثم رجع إلى مصر يفعل كذلك (وفيه) أغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة فى يوم واحد وختموا على جميعها ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والعطر والدخان خاناً بعد خان[٢١] » .

ويؤكد الجبرتى أيضاً على ظلم الفرنسيين وعدم امتثالهم للعدل فيما يرويه لنا أنه حدث فى شهر جمادى الثانية ١٢٥١ أن « حضر رجل إلى الديوان مستغيث بأهله وأن قاق الفرنسيين قبض على ولده وحبسه عند قائمقام وهو رجل زيات وسبب ذلك أن امرأة جاءت إليه لتشترى سمناً فقال لها لم يكن عندى سمن ، فكررت عليه حتى ضج منها ، فقالت له كأنك تدخره حتى تبيعه على الشملى ، تريد بذلك السخرية ، فقال لها نعم رغماً عن أنفك وأنف الفرنسيين ، فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى أنهوه إلى قائمقام ، فأحضره وحبسه ويقول أبوه أخاف أن يقتلوه ، فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئناً فإن الفرنساوية لا يظلمون كل الظلم ، فلما كان اليوم الثانى قتل ذلك ومعه أربعة لا يدرى ذنبهم وذهبوا ليوم مضى »[٢٢] .

ولعل هذه الحوادث وغيرها هى التى دفعت الجبرتى رغم إعجابه ببعض منجزات الفرنسيين إلى أن يتهمهم بالظلم ، وأن إعجابه بهم لم يتجاوز حد الإشادة بهذه المنجزات فضلا عن إعجابه ببعض المواقف التى يرى أنها تتسم بالعدالة على نحو ما سوف نعرضه بعد ذلك . ويتضح موقفه المعارض هذا فى تعليقه على ذلك البيان أو المنشور الأول لنابليون الذى قال فيه (أننى ما قدمت لكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين) . ويعلق الجبرتى على هذه العبارة بقوله « هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها »[٢٣] .

وما زال الجبرتى يروى لنا مظالم الفرنسيين فيذهب إلى أنه بعد ثورة القاهرة الأولى قرر الفرنسيون فردة وغرامة على العلماء والأهالى وقال العلماء « فإذا كان الأمر كما ذكرتم ولا يخرج من يدكم كسكين الفتنة ولا غير ذلك ، فما فائدة رياستكم ، وإيش يكون نفعكم ؟ وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر ، لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا .... فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحارب بلدكم وسبى

حريمكم وأولادكم ، ولكن حيث أعطينا كم الأمان فلانتقض إمامنا ولانقتلكم وإنما بأخذ منكم الأموال . فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك، عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانه عنها خمس عشرة خزنة رومى بثلاث عشرة خزنة مصرى ، منها خمسمائة على مائتين على الشيخ السادات خاصـــة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون أيضاً ، والشيخ محمد ابن الجوهرى خمسون ألفاً ، وأخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً ، والشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفاً والشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفاً ، من ذلك نصيب نهب دور الفارين مع العشملى ، مثل المحروقى والشيخ عمر مكرم وحسين أغاشتن . وما بقى تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون ، عندنا منكم خمسة عشر شخصاً . انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ »(٢٤) .

ولم يسلم من هذه الغرامة فرد أو طبقة أو طائفة حيث وزعت على « . . . الملتزمين وأصحاب الحرف ، وحتى على الحواة والقرداتية ، والمحبظين والتجار بالغورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم وكل طائفة مبلغ له صورة مثل ثلاثين ألف فرانه وأربعين ألف. كذلك بايعوا التبناك والدخان والصابون ، والخردجية والعطارون والزياتون والدواءون والجزارون والمزينون وجميع الصنائع والحرف(٢٥) .

إلا أن مؤرخنا الشيخ رغم سخطه الشديد على تلك المظالم التى ارتكبها الفرنسيون قبل فئات الشعب المصرى ، يحمد لهم بعض المواقف ، فضلا عن الموقف الخاص بمحاكمة سليمان الحلبى وانبهاره بسير المحاكمة ونظامها ، فإنه يذكر لنا حادثة أخرى تشير إلى امتثال الفرنسيين فى بعض المواقف إلى العدل وتدلل من جهة أخرى على الموضوعية النسبية التى اتسمت بها روايات الجبرتى، فيقول الجبرتى إنه فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٠١(*) حدث أن « . . . شنق الفرنساوية شخصاً منهم على شجرة ببركة الأزبكية قيل أنه سرق »(٢٦) .

الجبرتى إذن لم يملك إلا القلم لكى يعبر به عن سخطه وعدم رضائه عن الحكم الفرنسى بوجه عام ، وقد يرجع السبب فى هذا إلى تخوفه مما قد يسببه له هذا السلوك الإيجابى ضد الفرنسيين من بعض الأضرار الخاصة فآثر السلامة نظراً لما يتمتع به من مكانة خاصة فى المجتمع أورثه إياه والده ، هذا فضلا عما آل إليه مصير غيره من العلماء الذين عارضوا الحكم الفرنسى علناً كالشيخ السادات مثلا الذى سجن كرهينة لدى الفرنسيين حتى يدفع المشايخ قدراً معيناً من المال كعقاب لهم وللمصريين على ما صدر منهم أثناء ثورة القاهرة الأولى :

ولعل هذا السلوك المحافظ من قبل الجبرتى تجاه الحكم الفرنسى ، الذى يضمر فى طياته إعجابا بمنجزاتهم المادية والعلمية ونفوراً من سلوكهم تجاه الشعب وظلمهم إياه ، كان نتاجاً لتلك الثقافة التى عاش فى ظلها الرجل ، « .... سواء تلك التى جناها على يد والده أو من خلال دراسته واشتغاله بالتاريخ إلى جانب الخبرة والتجربة اللتين كسبهما من حياته العامة والخاصة أن صارت للشيخ فكرة محددة فى أصول الدولة والسياسة شكلت موقفه من الحوادث التى شهدها وتأثرت بها الأحكام التى أصدرها على المسئولين فى عهده »[٢٧] .

إلا أنه مما يجدر بالنسبة للجبرتى أنه لم يذكر اسمه من بين تلك الأسماء التى تكون منها أول ديوان أنشأه نابليون فى مصر وهو أمر أكده كثير من الباحثين والمؤرخين(*) ، فيشير الجبرتى إلى أنه لما اجتمع نابليون مع مندوبين من العلماء والمشايخ قال لهم « .... أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذوا مال التجار ، ومال السلطان .... وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية ، فيكونا مطمئنين ، وفى مساكنهم مرتاحين إلى آخر ما ذكرناه . ثم قال نابليون لهم :

« لازم أن المشايخ والشرباجية يأتون إلينا لنرتب معهم ديواناً نلتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمر » .

ثم يشير عبد الرحمن الجبرتي إلى تلك العناصر التي تكون منها هذا الديوان والتي انحصرت في العلماء والمشايخ : « وفي يوم الخميس ثالث عشر من صفر طلبوا المشايخ والوجاقلية عند بعض رؤوسهم وعينوا عشرة أنفار من المشايخ للديوان وهم الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ خليـــل البكري والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي ، والشيخ موسى السرسي ، والسيد مصطفى الدمنهوري ، والشيخ أحمد العريشي ، والشيخ يوسف بك كنخدا الباشا ، والقاضي وعملوا محمد أغا المسلماني أغاة مستحفظان ، وعلي أغا الشعراوي زعيم مصر ، وحسن أغا محرم أمين احتساب ، وذلك بإشارة أرباب الديوان ، فإنهم كانوا من تقليد المناصب لجنس المماليك ، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا الأتراك ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء الجماعة من أرباب البيوت القديمة »[٢٨] .

ولسنا ندري السبب في تجاهل الجبرتي لاسمه حين ذكر أسمـــاء أعضاء الديوان ، هل هو خوف من حكم التاريخ عليه باعتباره متعاوناً مع الفرنسيين ، أم هو دليل على عدم رضاه عن الديوان أو عن فكرة التعاون مع الفرنسيين على الإطلاق أياً كان مستوى التعاون معهم ، رغم أن هذا الديوان كان يعد نواة النظام شوري « .... لم تكن تعرفه البلاد من قبل ولا سيما إذا لاحظنا أنه وضع سنة ١٧٩٨ في أواخر القرن الثامن عشر ، ففي ذلك الحين لم يكن النظام الدستوري مألوفاً في الشرق . بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام هو السائد في بلاد الشرق قاطبة »[٢٩] .

ثم كان موقفه من محمد علي ، وهو موقف يتسم في عمومه بالمعارضة الشديدة ، إلا أنه مع ذلك لم يستطع إلا أن يشيد بمحمد علي وخاصة فيما اتصف به من ذكاء ودهاء لدرجة أنه قد أشار بأن لمحمد علي مندوحه لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان . ولكن مفتاح فهم علاقة الجبرتي بمحمد علي يكمن في تصوري فيما

أشار إليه الجبرتى من أن محمد على لو « وفقه الله شيء من العـــدالة ، على مافيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لـكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

فالظلم إذن وفقدان العدالة كان سبباً فى ذلك الموقف المتشدد الذى وقفه الجبرتى من حكم محمد عـلى ، رغم ما قدمه الأخير لمصر من أفضال لم يستطع إنـكارها عبدالرحمن الجبرتى نفسه ويتضمن ذلك حين « . . . بنى محمد على حائطين فى رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطغى الرمال وقت ضعف النيل بحيث تعطب المراكب وتتلف أموال المسافرين أكبره الجبرتى ووصف ما قام به (من أعظم الهمم المملوكية التى لم يسبق لمثلها »[٣٠] .

وإذا كان الجبرتى ينتمى إلى فئة متميزة فى المجتمع ، هى فئة العلماء ، إلى جانب غنـاه وتميزه الاجتماعى والاقتصادى ، وهو الأمر الذى جعل البعض يعزو السبب فى موقف الجبرتى المتشدد من محمد على إلى أن الإجراء التى اتخذها سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية قد مسته ومست الطبقة التى ينتمى إليها ، إلا أنه من ذلك لم يقف هذا الموقف المعارض من محمد على كنتيجة لما أصاب طبقته أو هو شخصياً من إجراءات محمد على ، أو ضيقه بأسلوب محمد على فى التفريق بين العلماء وفـكه مماليك عام ١٨١١ فحسب وإنما أيضاً لمـا أصاب الطبقات الأخرى فى المجتمع لا سيما الطبقات الـكادحة كالفلاحين والحرفيين وصغار التجار ، فهو يسوق لنا مثلا على مدى الظلم والقهر الذى عاش فى ظله الفلاح المصرى إبان حكم محمد على ، فيقول « . . . وفى أثناء ذلك : قرروا أيضاً فردة غلال وسمك وشعير وفول عـلى البلاد والقرى . وإن لم يجد المعينون الطلب شيئاً من الدراهم عنـد الفلاحين أخذوا مواشيهم وأبقارهم ليأتى اربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم ويرمونها عليهم قهراً بأقصى القيمة ، ويلزمونهم بإحضار الثمن . . . فإن تراخوا أو عجزوا ، شددوا عليهم بالحبس والضرب »[٣١] .

ويدلل الجبرتى على مدى تعنت جند محمد على وظلمهم فيقول إنهم « . . . زادوا فى الطنبور نغمات ، وهوانهم صاروا يتتبعون أولاد البلد ، وأرباب الصنائع الذين لهم نسبة قديمة بالقرى ، وذلك بإغراء اتباعهم وأعوانهم ، فيكون الشخص جالساً فى حانوته وصناعته فما يشعر إلا والأعوال محيطون به ويطلبونه إلى مخدومهم فإن امتنع أو التكأ ، سحبوه بالقهر وأدخلوه إلى الحبس ، وهو لا يعرف له ديناً . فيقول : «فيقولون له» طين فلاحتك . . . . من مدى سلتين لم تدفعه ، وقدره كذا وكذا ، فيقال له : ألست فلاناً . . . . الشبراوى أو المنياوى مثلا «فيقول لهم» هذه نسبة قديمة سرت إلى من عمى أو خالى أو جدى . . .

فلا يقبل منه ، ويحبس ويضرب حتى يدفع ما ألزموه به ، أو يجد شافعاً يصالح عليه . وقد وقع ذلك لكثير من يلتسبين والتجار وصناع الحرير وغيرهم »[٣٢] .

ونحن بذلك لا نجد ذلك التعالى الفكرى أو الطبقى لدى الجبرتى ، أولا نجد فيه تلك البرجوازية الفكرية أو الاقتصاديه[٣٣] التى جعلته يقف من أحداث عصره موقفاً تمليه عليه هذه الانتماءات الفكرية والاقتصادية فهو فى الوقت الذى يعيب فيه على محمد على ومعاونيه إجراءاتهم التى أصابت فئة العلماء والملتزمون ينعى عليه أيضاً إجراءاته التعسفية ضد الفلاحين والحرفيين وصغار التجار .

ولعل ما ساقه لنا الجبرتى وما سوف يسوقه لنا ويضربه لنا من أمثال يجعلنا لا نتفق كثيراً مع ما ذكره محمود متولى من أن قارىء الجبرتى يستطيع أن يستخلص « . . . . إنه كان بورجوازى التفكير حيث تظهر اهتماماته بالكتابة عن الطبقة الراقية والأعيان أكثر من الاهتمام بالعامة والذين لم يغفل فى ذكر أحداثهم »[٣٤] .

إلا أن متولى يذهب فى نص آخر إلى أن الجبرتى رغم كونه بورجوازياً

إلا أنه كان « . . . غير مستغل ومتعاطف وان كان يستنكر بعض تصرفات الرعاع إلا أن ذلك لم يمنعه من الدفاع عنهم أمام ظلم الحاكم وجبروته فى كتاباته »[٣٥] .

فنتولى هنا رغم تقريره بأن الجبرتى قد اهتم بالطبقة الراقية(*) من حيث الكتابة والتأريخ إلا أنه لم يستطع انكار تعاطفه مع العامة ووقوفه معهم ضد الحكام .

ولم يكن الجبرتى بظالم لمحمد على فهو يقـــرر ما هو واقع من حوادث ووقائع تشهد جلها بظلم الحاكم ومعاونيه ، فيذهب إلى ان كتخدا الباشا كان « . . . يتنوع فى استجلاب الأموال وتحايل فى استخراجها بأنواع من الحيل فمنها : « أنه يرسل إلى أهل حرفة من الحرف ، ويأمرهم ببيع بضاعتهم بنصف ثمنها ، ويظهر أنه يريد الشفقة والرأفة بالناس ، ويرخص لهم أسعار المبيعات) ، وأن أرباب الحرف تعدوا الحدود فى غلاء الأسعار . فيجتمع أهل الحرفة ويضجون ، ويأتون بدفاترهم وبيان رأس مالهم ، وما ينضاف إليه من غلو الأجر فى البحر والبر . . . . فلا يسمع لقولهم ، ولا يقبل لهم عذراً ، ويأمر بهم إلى الحبس . فعند ذلك يطلبون الخلاص ويصلحون على أنفسهم بقدر من المـال يدفعونه ويوزعون ذلك على أفرادهم فيما بينهم . ثم يزيدون فى سعر تلك البضاعة ليعوضوا غرامتهم من الناس . . . معتذرين بتلك الغرامة وما حل بهم من الخسارة ، ثم تستمر الزيادة على الدوام »[٣٦] .

فالحرفيون وصغار التجار والفلاحون كانوا من أكثر طبقات المجتمع تعرضاً للظلم والاضطهاد ، ولنا فى حال الفلاح خير مثل على ما نذهب إليه . فالسخرة والتجنيد بالقهر فضلا عن الفرض الجزافى للضرائب كلها أمور جعلت من الفلاح المصرى آنذاك ضحية لظلم الحاكم وتعنته .

ويدلل لنا اليوزباشى تورمان فى كتاب له طبع فى مارس ١٩٠٢ عن نظام الجندية وأسلوب التجنيد أيام حكم محمد على : « وكنت أرى جماعاتهم تمر بى كل يوم ، وأنا جالساً إلى قهوة تحت دارى بحى الأزبكية ، فى رتل طويل يسوقه الباشا بوزوق إلى القشلاقات سوق العائمة ، منظرهم يفتت الأكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهليهم ، ومن بين أحضان الحرية ، يسيرون مثنى ، مثنى مربوطين برقابهم إلى حبل من مسلة ، يمتد على طول الرتل ، فتيه ترتسم على وجوههم وفى أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع لاتكاد تستر عورتهم أسمال قذرة كانت فيما مضى هدوماً زرقاء »[٣٧] .

فلم يكن الجبرتى فى هذا متجنياً على محمد على فهاهو اليوزباشى تورمان يؤكد تلك الحال التى آل إليها الفلاح المصرى ، وها هو ادوارد لين الذى عاصر عهد محمد على يحكى لنا قصة الفلاح الذى قابل الباشا وهو فى طريق عودته من الاسكندرية إلى القاهرة فشكا له فقره وسوء حاله فأصدر محمد على أمره بأن على أغنى رجل فى القرية أن يعطيه بقرة يعيش منها . فيتهكم لين على محمد على ويقول هاهى العدالة كما يفهمها الباشا يحسن إلى فقيره ليس من ماله الخاص وإنما من مال غيره »[٣٨] .

ويشير لنا لين أيضاً إلى ما كان يتمتع به محمد على من سلطة مطلقة ، حيث كان من حقه أن يقتل من يشاء من رعيته دون محاكمة ودون إبداء السبب ، وإذا أشار بيده بحركة أفقية أطاح السيف برأس من يريد »[٣٩] .

فإذا كانت نشأة الجبرتى وانتماءاته الفكرية والطبقية قد انعكست آثارها على موقفه من محمد على نظراً لما أصابه وأصاب طبقته من ضرر سببته لهم اجراءاته الاقتصادية ، فهل كان ادوارد لين اليوزباشى تورمان وغيرهما لهما مصلحة فى اتخاذ هذا الموقف من محمد على وطبيعة نظام الحكم الذى كان سائداً آنذاك ؟

ويعزو البعض السبب فى ذلك الموقف الذى اتخذه الجبرتى من محمد على إلى أنه لم يدرك طبيعة التغير الذى أحدثه ، وانه راح « . . . يقيس الأمور بمقياس الأخلاق وحدهما ، دون أن يقدر كنه التغيير أو دواعيه وبواعثه . . . والحق ان الجبرتى عاش من حكم محمد على سنواته العشرين الأولى ، وهو السنوات التى عنى فيها محمد على بتحطيم مقومات البناء القديم ليبنى بناءه الجديد . وسنو الهدم دائماً يشوبها العنف والقسوة والمصادرة . وهذه كلها أمور سجلها الجبرتى ناقداً ساخطاً وان لم يع ما وراءها من قصد »[٤٠] .

والحقيقة ان هذه القضية ـ قضية عدم إدراك الجبرتى لطبيعة التغير الذى أحدثه محمد على ـ فى حاجة إلى مناقشة . فالواقع انه ليس دفاعاً عن الجبرتى ان نقول ان فهم طبيعة علاقته بمحمد على يكمن فى معنى العدالة كما يفهمه الجبرتى وهو عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها . وهنا تلعب نشأته الدينية دوراً فى تحديد هذا المعنى ، كذلك تأكيده على أن سبب هلاك الحاكم هو (أطراح ذوى الفضائل ، واضطناع ذوى الرذائل والاستخفاف بعظة الناصح ، والاغترار بتزكية المادح) ، فإذا كان هذا هو تصور الجبرتى للعدالة وللحاكم العادل فلا غرابة إذن إذا اتخذ الجبرتى هذا الموقف المتشدد من محمد على . ثم من قال أن الجبرتى لم يدرك طبيعة التغير الذى أحدثه محمد على . لقد شعر الجبرتى ان لهذا الحاكم ـ وهذا حق ـ ملكات وخصائص لم تتوفر لغيره من الحكام ، وانه كثيراً ما كان يشيد به ملكا لمصرنا ـ فلقد وصف أحد الأعمال التى قام بها بأنها من أعظم الهمم لم يسبق لمثلها وبأن له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان .

ولم يكن الجبرتى منافقاً حين قال على محمد على انه لو وفقه الله لشىء من العدالة ، على ما فيه من العزة والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه .

ولكن على أية حال فإنه رغم الموضوعية النسبية التى تميزت بها كتابات الجبرتى إلا أننا لا نستطيع وفقاً لما تتيحه لنا مناهج البحث فى سسيولوجيا المعرفة أن نسلخ مواقف الجبرتى ، وآراءه وتصوراته المختلفة كعلاقته بالسلطة الحاكمة فى أيامه عن طبيعة الثقافة التى عاش فى ظلها وطبيعة العصر الذى ينتمى إليه حيث عاش الجبرتى فترة قلقة من تاريخ مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى العشرينيات من القرن التاسع عشر .

فاختلاط النظرة الموضوعية بالنظرة الذاتية فى حكمه على الأمور أمر غير منكور وان كنا لا نستطيع تحميل ميوله وإتجاهاته ونظراته الذاتية بوجه عام أكثر مما نحتمل نظراً لما يؤكده لنا التاريخ ومن مصادر أخرى غير الجبرتى من أن حكم الجبرتى على طبيعة السلطة فى عصره حكما لم يبعد كثيراً عن الموضوعية .

ثانياً : الجبرتى والثورة

إذا كان لعبد الرحمن الجبرتى ذلك الشيخ صاحب تلك المكانة الاجتماعية المرموقة ، وتلك الوضع العلمى المتميز ، موقف خاص من فكرة الثورة ، فان هذا الموقف لم يتسم بالثبات ، فهو تارة مؤيد أشد ما يكون التأييد ، وتارة أخرى متحفظ إلى حد الاستنكار . والثورة كما نعنيها هنا هى تلك الانتفاضات التى يقوم بها غالبية فئات الشعب تعبيراً عن السخط وعدم الرضا عن ظلم الحاكم وتعنته .

ولا شك أن تعدد مواقف الجبرتى من الثورة والثوار يرجع فى حقيقة الأمر إلى طبيعة كل ثورة وأسبابها ، فضلا عما تميز به الجبرتى من محافظة شديدة وكراهية للعنف .

والحقيقة أن الجبرتى قد أيد بشكل لافت ثورة أهالى الحسينية ١٧٨٥ ، وتلك الثورة (١٧٩٥) التى أرغمت الوالى والمماليك على كتابة وثيقة أو حجة تبين الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية . وفيها ذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . . . . . وأزدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراها إبراهيم بك . . . . فحضر إليهما وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مراد ، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث ، والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها والأمر يكون بالاعطاء لا بالأخذ . . . وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد . . . »[٤١] .

فالملاحظ أن الجبرتى وان لم يشترك فعلياً فى هذه الثورة ، إلا أنه لم يستنكرها ، بل نلاحظ تعاطفه معها ومع الأهالى أو العامة أو الرعيـــة كما يسميهم . إلا أننا نجد بعد ذلك موقفاً يتسم بالمحافظة إن لم يكن الاستنكار وهو الخاص بثورتى القاهرة الأولى والثانية .

ويشير الجبرتى إلى حوادث ثورة القاهرة الأولى تلك التى اندلعت لأسباب اقتصادية فى المحل الأول وهى فرض الضرائب الجزافية على فقراء الشعب وطبقاته الدنيا فيقول :

« وفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار ، فجعلوا الأعلى ثمانية قرانه والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، ومن كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معاف . وأما الوكايل والخانات والجماعات والمعاصر والسراج والحوانيت فمنها وجعلوا عليه ثلاثين وأربعين ، وكل شىء بما يعد بحسابه . وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخ للأعيان . . . ولما أشيع ذلك

فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض اسيسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ووافقهم فى ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر انه فى القبض مأسور ، وأن الملاعين اللغار ، مالكون القلاع والأسوار ، ويحضون الجميع بآلات الحرب المنيع ، لتجميع الكثير الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم »[٤٢] .

ثم يسرد لنا الجبرتى حوادث الثورة بعد ذلك قائلا : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح . وحضر السيد بدره وصحبته حشرات الحسينية « وزهر الحارات البرانية ، ولها صياح عظيم وهول جسيم . ويقولون بصياح الكلام . نصر الله دين الإسلام . فذهبوا إلى بيت قاضى عسكر وبه من سبقهم عمن على شاكلتهم نحو الألف وأكثر ، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه ، فرجموه بالحجارة والطوب . وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب . وكذلك اجتمع بالجامع الأزهر ، العالم الأكبر — وفى ذلك الوقت حضر اللعين « دبوى » بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية ، وذهب إلى بيت الشرقية فلم يجده ، فذهب إلى بيت القاضى فوجـــد ذلك الزحام ، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الاخطاط بالخلائق فرخومه ، فبادروا إليه وضربوه وأخنوا جراحاته وقتلوه وقتلوا الكثير من الفرنسيين ، وأبطاله وشجعانه ، وذهبوا إلى السعير وبئس المصير »[٤٣] .

فالملاحظ أن موقف الجبرتى من ثورات ما قبل الحملة الفرنسية وتلك التى حدثت أثناءها ، موقف يتسم بتأييد الأولى والتحفظ فى الثانية . والدليل على ذلك تسميته لثوار ما قبل الحملة الفرنسية بالعامة أو الرعية وهى تسمية طيبة إذا قارناها بتسميته لثوار فترة الحملة الفرنسية بالحشرات والزعر .

ولكننا فى الواقع إذا ما تساءلنا عن السبب فى اختلاف موقف الجبرتى من الثورة والثوار ، فإنه إلى جانب النشأة المحافظة للجبرتى ، فقد رأى فى هذه مخاطرة شديدة نظراً لما يملكه الفرنسيون من عداد القهر والحرب ومقاومة أى تمرد وهو الأمر الذى يتيحه لهم تفوقهم العلمى وينبغى ألا ننسى انبهار الجبرتى بتفوقهم هذا . فالاستنكار هنا ليس استنكار الرافض للتمرد على الظلم وإنما هو استنكار الخائف على العامة والدليل على ذلك قوله على أحد المتعممين الذين ايدوا الثورة والثوار انه « . . . . لم ينظر فى عواقب الأمور ، ولم يتفكر انه فى القبض مأسور ، وان الملاعين الكفار ، مالكون القلاع والأسوار ، ويحضون الجميع بآلات الحرب المنيع »[٤٤] .

فالنزعة المحافظة لدى الجبرتى ، وانبهاره بعلم الفرنسيين وخوفه على العامة من استخدام الفرنسيين لعلمهم هذا فى مقاومتهم وهو الأمر الذى حدث بالفعل كانت من بين الدوافع التى جعلت مؤرخنا يقف هذا الموقف من ثورات فترة الحملة الفرنسية .

بعـــدو

إذا كان الجبرتى ذلك المؤرخ الذى انفرد بالكتابة عن تاريخ مصر خلال هذه الحقبة الزمنية الحية التى حفلت بأحداث متميزة عملت على تغيير مجريات الأمور فى مصر قد أراد أن يكون موضوعياً ، إلا أن موضوعيته هذه قد تلونت إلى حد ما بنظرته الذاتية للأمور ، تلك النظرة التى تعد نتاجا لطبيعة ثقافته ونوعية البيئة الاجتماعية والعلمية التى كان ينتمى إلى ، فضلا عن طبيعة البناء الاجتماعى والاقتصادى الذى عاش فى ظله الرجل .

إلا أنه من العسير علينا أن نذهب إلى حد تأكيد غلبة النظرة الذاتية فى كل ما كتب . والنظرة الذاتية وفقاً لما يتيحه لنا على اجتماع المعرفة ـ أمر

ليس من السهل تجنبه فالباحث — أى باحث — لا يستطيع أن يسلخ نفسه عن الظاهرة التى يعنى بدراستها فما بالنا بمؤرخ عاش أحداثاً معينة ، وله ميول خاصة وثقافة متميزة ليس من السهل عليه أن يصدر أحكامه أو يصف مايشاهد ويقرر ما هو كائن دون أن يكون لنظرته الذاتية نصيب فى هذا .

ولكن السؤال هنا : هو إلى أى حد تستطيع الرؤيه الموضوعية أن تكبح جماح النظرة الذاتية للأمور بحيث لا تترك لها السيادة والغلبة .

وأعتقد أن هذا ما استطاع أن ينجح فيه ببراعة مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى .

الحواشى

(١) انظر محمد محمود السروجى ، عجائب الآثار ومظهر التقديس : دراسة مقارنة ، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، العدد ١٥٨ ، مايو ١٩٧٤ ، ص ٢ .

(٢) السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى — ١٥١٧ — ١٨٨٢ ، ص ٣٠ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، ثورة شعب ، عرض للحركة الوطنية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين مع دراسة تفصيلية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ص

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الأول ، طبعة بيروت ، ص ٤٠ — ٤١

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الأرض والفلاح فى عصر محمد على ، الجمعية المصرية .

(6) ISSAWI, Charles, Egypt : An Economic And Social Analysis, Oxford Univ Press, London, 1947,

(٧) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ص ١٥٠ .

(٨) لوتسكى ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص ٧٠ .

(*) لم يستخدم الجبرتى التقويم الميلادى .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .

(١٠) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(١١) انظر : محمد انيس ، الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبدالرحمن الجبرتى وعصره : بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ ابريل ١٩٧٤) ص ١٥ .

(١٢) انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ، فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن

الجبرتى وعصره : بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ أبريل ١٩٧٤) ، ص ٤ .

(١٣) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٨.

(١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكرى المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، ص ٦٣ .

(١٥) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسى عند الجبرتى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته ، ص ٤ .

(١٦) ذكر الجبرتى هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة فى مقدمة عجائب الآثار حين بدأ فى ذكر صفات الحاكم العادل .

(١٧) انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتى مؤرخا ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته (١٦ — ٢٣ أبريل ١٩٧٤) ، ص ٧ .

(١٨) صلاح عيسى ، عبد الرحمن الجبرتى : مؤرخ فى ميزان المؤرخين، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشرة ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٥ .

(١٩) أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى ، طبعة بيروت ، ص ٦ — ٧ .

(٢١) عبد الرحمن الجبرتى ، الجزء الثالث من التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة قديمة ، لم يذكر اسم الناشر ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢٢) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(*) ما عدا اعجاب الجبرتى بطريقة محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر .

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسين ، ص ٦١ .

(٢٤) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار (المختار من تاريخ الجبرتى) ، كتاب الشعب ، ص ٣٦٥ — ٣٣٦ .

(٢٥) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ٣٦٧ .

(*) لم يستخدم الجبرتى التقديم الميلادى .

(٢٦) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ٤٤١ .

(٢٧) عبد الخالق محمد لاشين ، الفكر السياسى عند الجبرتى ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(*) انظر مجموعة الدراسات الخاصة بندوة عبد الرحمن الجبرتى وعصره بمناسبة انقضاء ١٥٠ عاما على وفاته ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

(٢٨) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، ص ٧٢ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ص ١٥١ .

(٣٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الجبرتى مؤرخا ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(٣١) عبد الرحمن الجبرتى ، وتاريخ الجبرتى ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٧٤٣ .

(٣٢) عبد الرحمن الجبرتى ، المصدر نفسه ، ص

(٣٣) انظر محمود متولى ، الجبرتى والبرجوازية الصغيرة ، مجلة الكاتب ، السنة الرابعة عشر ، مايو ١٩٧٤ ، العدد ١٥٨ ، ص ٣٧ .

(٣٤) محمود متولى ، نفس المرجع ، ص ٤٧

(٣٥) محمود متولى ، نفس المرجع ، ص ٣٧ .

(*) الواقع ان هذا الأمر اختلف بشأنه الباحثون ففى الوقت الذى يؤكد فيه الدكتور محمود متولى اهتمام الجبرتى بالكتابة عن الطبقة الراقية التى كان ينتمى اليها ، يؤكد الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى من جانب آخر على أن الجبرتى لم يقصر اهتمامه على علية القوم والأحداث الهامة لقد عنى بالأمور الجليلة والصغيرة . (انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى

(٣٦) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ الجبرتى ، كتاب الشعب رقم ٤٠ ، الجزء السابع ، ص ٨١٦ .

(*) يقصد بهم الفلاحين .

(٣٧) نقلا عن حسين فوزى ، سندباد مصرى : جولات فى رحاب التاريخ ، ص ٩٥ .

(٣٨) أنرظ ادوارد وليام لين ، انجليزى يتحدث عن مصر ، عن كتاب المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة فاطمة محجوب ، ص ٧٧ .

(٣٩) ادوارد لين ، نفس المرجع ، ص ١٢ .

(٤٠) أحمد عزت عبد الكريم ، الجبرتى مؤرخ مصر على مفرق الطرق ، مرجع سابق ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٤١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ــ الجزء الثالث ، ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

(٤٢) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

(٤٣) عبد الرحمن الجبرتى ، نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

(٤٤) عبد الرحمن الجبرتى ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .